الإنسان وعلاقته بالبيئة من منظور إسلامي

أ.د. أحمد يوسف بشير

تمهيد

– شغلت البيئة كل البشر عبر جميع عصور التاريخ ، فكانت الطبيعة مصدر خوف وفزع حينًا ومهبط الوحي حينًا آخر ، ولكنها في جميع الأحوال دفعت الإنسان للتأمل في الكون خارج ذاته ، وحاول أن يترجم تأملاته إلى أنظمة عقائدية أو فكرية أعطته التوازن مرة ودفعته إلى الصراع مرات ... وسوف تظل البيئة بوجه عام مسرح الخلق الإنساني وملتقى ما يسطره التاريخ من صفحات تعكس نضال الإنسان معها من أجل استخدام أفضل لها ، ويتبارى البشر في اكتشاف أسرارها وبناء التكنولوجيا من موادها ، وهنا يتدرج الإنسان من أعلى سلم التقدم إلى أسفله من خلال مجتمعات يحكم مكانها في هذا السلم مبلغ ما استطاعت أن تطوع جانبًا أو آخر من الطبيعة لخدمة مصالحها [١] (ص١) حيث إن الإنسان – منذ بدء الخليقة – وهو يسطر قصة كفاحه المستمر مع الطبيعة سعيًا لفهمها ، والتعرف على أسرارها ، واستهدافًا للسيطرة عليها وتسخيرها لخدمته ورفاهيته ، وما التاريخ البشري إلَّا سجل حافل بمنجزات الإنسان في هذا المضمار كما أن مراحله المختلفة ـ بدءًا بالعصر الحجري القديم وانتهاء بعصر الفضاء ـ ليست إلَّا قفزات واسعة استطاع الإنسان قطعها على طريق التوافق مع البيئة من حوله ، أو التعرف على أسرارها ، أو السيطرة عليها ... (ص ٥ – ١١) .

فالبيئة تمثل بالنسبة للإنسان ذلك الإطار الذي يستمد منه مقومات حياته ، وعوامل قوته وأسباب نموه الفكري والمادي والأخلاقي والاجتماعي والروحي والإنساني بما وهبه اللَّه من خصائص بيولوجية تميزه عن باقي المخلوقات ، يعيش باستمرار في مستوى طاقة احتمال بيئته ، بينما باقي المخلوقات تعيش دون مستوى طاقة احتمال بيئاتها . ولقد أدى التقدم الهائل الذي أحرزه الإنسان في مجالات العلم والتكنولوجيا إلى إحداث إخلال ، بل تدهور في مكونات البيئة بحيث أصبح خطر العيش فوق طاقة احتمال البيئة متوقعًا ، بل لعله واقعًا في بعض المجالات وفي بعض الأقطار ؛ إذ بدأنا نعيش ونسمع عن « مشكلة

(١) السيد عبد العاطي السيد : « الإيكولوجيا الاجتماعية » دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، (١٩٨٥م) .

الغداء » ، و « مشكلة السكان » ، و « مشكلة التلوث » ، وهي مشكلات ناجمة في المقام الأول عن النشاطات البشرية في البيئة [١] (ص ٥٠) ، ومن هنا تنبه الإنسان أخيرًا إلى ما أدى إليه تعامله غير الرشيد وغير العقلاني مع النظم البيئية التي يعيش فيها ويتعامل معها ، وأصبحت قضايا البيئة ومشكلاتها هي الشغل الشاغل للدول المتقدمة والدول النامية على حد سواء ، وتحقق المسؤولون من أن تلك المشاكل قد أصبحت تهدد حياة الإنسان على هذا الكوكب ، ومن أنه إذا لم يتكاتف بنو البشر – لا فرق في ذلك بين مجتمعات متقدمة أو متخلفة – لإيجاد الحلول المناسبة وتلمس سبل الوقاية من هذه المشكلات فإنها سوف تتحول إلى كوارث محققة تهدد حياة الإنسان وغيره من الكائنات الحية على كوكب الأرض .

ويلخص البعض هذه القضية بقوله : إن الإنسان بدأ حياته على الأرض وهو يحاول أن يحمي نفسه من غوائل الطبيعة ، وانتهى به الأمر بعد آلاف السنين وهو يحاول أن يحمي الطبيعة من نفسه [٢] (ص ١٩) .

وينطلق البحث الراهن – استنادًا إلى ما سبق من اعتقاد مؤداه .

أن الإنسان يعتبر المسؤول الأول والأساسي ، عما تتعرض له البيئة من اختلال وتدهور نتيجة لتدخله غير العقلاني في النظم البيئية ، كما أنه وفي ذات الوقت المتضرر الأول مما يحدث في البيئة من مشكلات ، أي أن الإنسان هو المتسبب في مشكلات البيئة وهو أول الكائنات تأثرًا بها ، ومن هنا تبرز مسؤولية الإنسان تجاه البيئة ، وأهمية إيجاد علاقات متوازنة بين الإنسان والبيئة ، أساسها المصلحة المتبادلة التي تتيح للإنسان استمرار العيش المريح وللبيئة استمرار التوازن وتدفق العطاء ، وهو ما يعرف بالتعايش الإيجابي مع البيئة .

ومن هنا كان هذا البحث الذي يستهدف التعرف على طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة في التصور الإسلامي ، وما إذا كان الإسلام قد رسم حدودًا وأطرًا معينة ينبغي أن تنتظم فيها علاقة الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها تحقيقًا لرسالة الإنسان في التصور الإسلامي ، وتأكيدًا لأهمية البيئة ، باعتبارها مسرح تحقيق هذه الرسالة .

---

(١) رشيد الحمد – محمد سعيد صباريني : « البيئة ومشكلاتها » ، سلسلة عالم المعرفة العدد (٢٢) ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أكتوبر (١٩٨٩م) .

(٢) أحمد مدحت إسلام : « التلوث مشكلة العصر» ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (١٥٢) يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، أغسطس (١٩٩٠م) .

هذا ويستند البحث الراهن إلى عدة اعتبارات ينبغي التأكيد عليها ، والتي تشكل مبررات وبواعث اختيار هذا الموضوع على النحو التالي :

أ – ما تشهده الآونة الحالية من اهتمام كبير من جانب العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع والنفس والتربية والخدمة الاجتماعية والبيولوجيين والفيزيائيين وغيرهم بالبيئة ومشكلاتها ، والتغيرات التي تطرأ عليها ، وأساليب التعامل معها ، والأضرار التي تلحق بها نتيجة مبالغة الإنسان والمجتمع ، أو محاولة الكشف عما لحق بالبيئة من أضرار وأذى قد يصعب علاجها أو تلافيها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم .

ب – أن المشكلة البيئية ، مهما تعددت مجالاتها ومهما كانت درجة خطورتها فهي مشكلة سلوكية في المقام الأول ، ومن ثم إذا ما أردنا مواجهة مشكلات البيئة ، فإن الأمر يستلزم بداءة تعديل سلوكي للإنسان المتعامل مع البيئة والمتفاعل معها ، بحيث يتبنى قيمًا بيئية إيجابية وسلوكيات تستهدف حماية البيئة والمحافظة عليها .

جـ – واستنادًا إلى النقطة السابقة تأتي أهمية دور الخدمة الاجتماعية باعتبارها مهنة إنسانية تتعامل مع الإنسان وسلوكه في تعامله مع البيئة .

د – أن جهل الإنسان بنواميس الكون التي سنَّها اللَّه من ناحية ، وجهله برسالته في الحياة التي من أجل تحقيقها خلقه ، ومكَّنه في الأرض من ناحية أخرى ، وسعيه المستمر – في ضوء هذا الجهل – وراء المتعة الدنيوية التي تتميز بالأنانية من ناحية ثالثة ، كل ذلك أدى إلى ما أصبح العلماء يحذرون منه من مشكلات وأخطار بيئية ، ومن هنا كان التأكيد على إبراز وتوضيح هذه الأمور من الأهمية بمكان فيما يتعلق بالجهود المبذولة لحماية البيئة والمحافظة عليها .

هـ – أنه إذا كانت التربية البيئية تحتل أهمية كبرى ضمن وسائل وأساليب مواجهة المشكلات البيئية والوقاية منها ، فإن الباحث يعتقد أن القيم الدينية والتأكيد عليها يلعب دورًا مهمًّا في نجاح التربية البيئية وتحقيق أهدافها ، في ضوء هذه الاعتبارات عند الباحث إلى تناول علاقة الإنسان بالبيئة من منظور إسلامي كموضوع لهذا البحث ، ولذا سوف نعالجه من خلال العناصر التالية :

* المفاهيم الأساسية .
* الخدمة الاجتماعية والاهتمام بالتربية البيئية .
* مهمة الإنسان في البيئة كما حددها الإسلام .

* مكانة الإنسان المتميزة في البيئة .
* مكونات المنهج الإسلامي في رعاية البيئة .

أولًا : تحديد المفاهيم الأساسية

١ - مفهوم البيئة :

– البيئة لفظة شائعة الاستخدام ، يرتبط مدلولها بنمط العلاقة بينها وبين مستخدمها ، ومن هنا تعددت تعريفات البيئة بتعدد هذه العلاقات ، فرحم الأم بيئة الإنسان الأولى ، والمدرسة بيئة ، والحي بيئة ، والقُطر بيئة ، والكرة الأرضية بيئة ، والكون كله بيئة .. وهكذا ، كما يمكن النظر إلى البيئة من خلال النشاطات البشرية المختلفة ، فنقول البيئة الزراعية ، والبيئة الصناعية ، والبيئة الثقافية ..... إلخ (١٢/٢) .

– وبصفة عامة يعرف البعض البيئة بأنها : « مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية ، وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها » [١] .

(ص١) ومن الملاحظ أن هذا التعريف يركز على البيئة الطبيعية ، بينما أهمل العوامل الاجتماعية والعلاقة المتبادلة بين الكائن الحي وبيئته .

– ويتسع تعريف آخر ليشمل هذه الجوانب حيث ينظر للبيئة على أنها : « الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ومأوى ، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر » [٢] (ص ٣٧٢) .

– ويوضح هذا التعريف أن البيئة ليست مجرد موارد يتجه إليها الإنسان ليستمد منها مقومات حياته ، وربما يؤكد التعريف على أن البيئة تشمل علاقة الإنسان بالاتصال والتي تنظمها المؤسسات الاجتماعية والعادات والتقاليد والأخلاق والقيم والأديان ، فالبيئة وفقًا لهذا التعريف كل متكامل يشمل إطارها الكرة الأرضية ، وما يؤثر فيها من المكونات الأخرى للكون ، ومحتويات هذا الإطار ليست جامدة بل إنها دائمة التفاعل مؤثرة ومتأثرة ، والإنسان واحد من مكونات البيئة ، يتفاعل مع مكوناتها بما فيها من يمثل بني جنسه .

---

(١) علي كامل فرج : (البيئة والنظام البيئي » دليل الشاب في رعاية البيئة ، المجلس الأعلى للشباب والرياضة ، القاهرة ، (١٩٨٧م) .

(٢) محمود سامي عبد السلام : « مشاكل تلوث الهواء في بعض البلدان العربية » في الإنسان ... البيئة ... التنمية « مؤتمر الخرطوم ، فبراير (١٩٧٠م) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جامعة الدول العربية ، (١٩٧٥م) .

– ولقد حدد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية والذي انعقد في (أكتوبر سنة ١٩٧٢م) بمدينة استكهولم ، مفهومًا شاملًا للبيئة ، بحيث أصبحت تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية (ماء وهواء وتربة ومعادن ومصادر للطاقة ونباتات وحيوانات) بل هي رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما ، وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته (٢٥/٢) .

ويتبنى هذا البحث تعريفًا شاملًا للبيئة يتسق وأغراض البحث وموضوعه ؛ إذ ينظر إلى البيئة على أنها : ذلك الوسط الذي يعيش فيه الإنسان بما يتضمنه من إمكانات وموارد طبيعية واجتماعية يتفاعل معها الإنسان مؤثرًا ومتأثرًا ، بغرض إشباع احتياجاته واستمرار حياته ، والبيئة بهذا المعنى هي كل ما يحيط بالإنسان في هذا الكون سوى الإنسان نفسه .

٢ - مفهوم تلوث البيئة :

– **المعنى اللغوي** : جاء في المعاجم : لوَّث الأمر أي لَبسه ، ولوَّث التبن بالقت أي خلطه ، وتلوث بالطين ، وتلوث بغلان رجاء متعة ، أي لاذَ به وتلبس بصحبته ، ولوَّث الماء أي كدَّره ، ويقال : التأثت عليه الأمور أي التبست ، والتأث في عمله أي أبطأ ، والتأث بالدم أي تلطخ به ، وفلان به لوثة أي به جنون [١] (ص ٦٧) ، ونستنتج من هذا أن التلوث له معنيان في اللغة معنى مادي : وهو اختلاط أي شيء غريب عن مكونات المادة بالمادة مما يؤثر عليها ويفسدها كتلوث الماء والتلوث بالتلوث بالطين . وأما التلوث المعنوي فهو يعني ذلك التغير الذي ينتاب النفس ، فيكدرها أو يكون تغيرًا من أجل غرض ما ، التلوث بنوعيه المادي والمعنوي يعني فساد الشيء سواء كان هذا الشيء كائنًا حيًّا كالإنسان أو الحيوان ، أو جسمًا غير حيٍّ كالهواء والماء والتربة وغيرها [٢] (ص ١١) .

– **المعنى الاصطلاحي لتلوث البيئة** : هو كل تغير كمي أو كيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية لا تقدر الأنظمة البيئية على استيعابه دون أن يختل توازنها ، أو هو وجود أية مادة أو طاقة في غير مكانها وزمانها وكميتها المناسبة (ص ١) (ص ١٤٩ ، ١٥٠) . ووفقًا لهذا التعريف ، فإن أي تغير كمي أو كيفي في مكونات البيئة إذا كانت النظم البيئية

(١) مختار الصحاح ، ط. ٨ ، وزارة المعارف العمومية ، القاهرة (١٩١٩م) .

(٢) محمد عبد القادر الفقي : « القرآن الكريم وتلوث البيئة » ، مكتبة المنار الإسلامية ، ط. ١ ، الكويت ، (١٩٨٥م) .

تستطيع أن تستوعبه دون أن يختل توازنها لا يعتبر تلوثًا ، وعلى ذلك فالإنسان في عصر ما قبل الثورة الصناعية لم يتعرض لمشكلة التلوث ؛ لأن كل مخلفات نشاطاته كانت مما تستطيع الدورات الطبيعية للأنظمة البيئية أن تستوعبه وتجربه في سلاسل تحولاتها ، ولذلك حظيت هذه المشكلة بالدراسة والاهتمام ؛ لأن آثارها الضارة شملت الإنسان نفسه وممتلكاته ، كما أخلت بالكثير من الأنظمة البيئية السائدة ، ولخطورة التلوث فلقد طفى على كل قضايا البيئة ومشكلاتها وارتبط بكل حديث عنها حتى رسخ في أذهان كثيرة أن التلوث هو المشكلة الوحيدة للبيئة ، ومع أن الواقع يؤكد غير ذلك ؛ إذ أن هنالك العديد من المشكلات البيئية الأخرى كنقص الطاقة ومشكلة الغذاء واستنزاف المصادر الطبيعية .. إلخ .

٣ - التربية البيئية :

– تعددت الآراء في معنى التربية البيئية ومدلولها بتعدد مدلول العملية التربوية وأهدافها من جهة ، ومدلول البيئة من جهة أخرى ، ومن تعريفات التربية البيئية أنها : « عملية تعليم المجتمع كيفية حماية نفسه من الأمراض والمشاكل البيئية » .

– كما يعرفها البعض بأنها : « عملية تغيير أفكار وأحاسيس وسلوك الناس فيما يتعلق بصحتهم وبيئتهم » [١] (ص ٢٥ – ٢٧) .

– ويرى آخرون أن التربية البيئية في العملية الأساسية التي تعني بإعداد المواطنين الواعيين بالبيئة البيوفيزيقية (البيولوجية – الطبيعية) وما يرتبط بها من مشكلات ، وبحيث يتكون لديهم المعرفة والمهارة والرغبة والالتزام بالعمل على حل المشكلات الراهنة والمستقبلة [٢] (ص ١٣٠) .

– ويمكن القول من خلال إعادة النظر في هذه التعريفات أنها تقصر التربية البيئية – وفقًا للمفهوم الجزئي للبيئة – على تناول البيئة من جوانبها البيولوجية والفيزيائية ، في حين أن المفهوم الشامل للبيئة ، يتضمن بالإضافة إلى ذلك – كما سبق أن أشرنا – الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويبرز ما يوجد بين هذه العوامل المختلفة من ترابط ، ولذلك يمكن تعريف التربية البيئية في إطار المفهوم الشامل للبيئة على أنها : « عملية تكوين القيم والاتجاهات والمهارات والمدركات اللازمة لفهم وتقدير العلاقات المعقدة التي تربط

---

(١) فيولا البلاوي : التربية البيئية ومقوماتها السلوكية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، (١٩٨١م) .

(٢) William Stapp, “ The Concept of Environmental Education ” in The Journal of Environmental EducatioñVol. 1, 1969.

الإنسان ، وضرورة حسن استغلالها لصالح الإنسان حفاظًا على حياته الكريمة ، ورفع مستويات معيشته » (٢٢٤/١) . ومن هذا التعريف يتضح أن التربية البيئية هي عملية إعداد الإنسان للتفاعل الناجح مع بيئته بما تشمله من موارد مختلفة ، وتتطلب هذه العملية العمل على تنمية جوانب معينة لدى الإنسان ، منها : توضيح المفاهيم وتعميق المبادئ اللازمة لفهم العلاقات المتبادلة بين الإنسان وثقافته من ناحية وبين الوسط البيوفيزيقي من حوله من ناحية أخرى ، كما تتطلب أيضًا تنمية المهارات التي تمكن الإنسان من المساهمة في حل ما قد تتعرض له بيئته من مشكلات وما يتهددها من أخطار ، والمساهمة في تطوير ظروف هذه البيئة ، وتستلزم التربية البيئية أيضًا تكوين الاتجاهات والقيم التي تحكم سلوك الإنسان إزاء بيئته ، وإثاره ميوله واهتماماته نحو البيئة ، واكتسابه أوجه التقدير لأهمية العمل على صيانتها والمحافظة عليها ، وفي تصور الباحث فإن ذلك لن يتأتى إلا إذا ارتكزت عملية التربية البيئية على القيم الدينية واستثارتها في نفس الإنسان بحيث تصبح هذه القيم هي الموجهة لتصرفات الإنسان وسلوكه حيال البيئة التي يعيش فيها .

ثانيًا : الخدمة الاجتماعية والتربية البيئية

سبق أن أوضحنا أن مهنة الخدمة الاجتماعية تعد من بين المهن التي تعطي اهتمامًا واسعًا للبيئة – في الوقت الحالي – وموقف الإنسان منها وتأثره بها وتأثيره فيها ، وتسعى إلى الإسهام في مواجهة ما يترتب على ذلك من مشكلات ملحة مثل التلوث ، واستنزاف المصادر الطبيعية ، واختلال قوانين التوازن الطبيعي بين الأنظمة الأيكولوجية المختلفة ، وكذلك تبصير الإنسان بحقوقه البيئية وواجباته إزائها ، وإعداد الموطن البيئي الصالح ، فلم تعد الخدمة الاجتماعية كمهنة تقصر اهتمامها على الجوانب العلاجية على مستوى الفرد أو الجماعة فقط ، وإنما تطورت المهنة ، وإخذت تبلور لنفسها (أساليب) وأدوارًا جديدة ، حيث أصبحت تركز تدخلها المهني على محاولة أحداث تغييرات مرغوبة في الأفراد أو في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات ، أو في المجتمعات المحلية والنظم الاجتماعية [١] (ص ٩) ، ومن هنا تؤمن الخدمة الاجتماعية بأهمية البيئة في حياة الإنسان ، سواء نظرنا إلى البيئة بمفهومها الضيق في الخدمة الاجتماعية (البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان ويتفاعل معها ، أو بمفهومها الواسع والشامل (حيث

---

(١) إبراهيم عبد الرحمن رجب وآخرون : « نماذج ونظريات تنظيم المجتمع » سلسلة قراءات في تنظيم المجتمع ، الكتاب الثاني ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة (١٩٨٣م) .

تتضمن كل ما هو خارج عن كيان الإنسان ذاته ، أي كل ما يحيط بالإنسان من موجودات حية وغير حية) . وتأتي أهمية الخدمة الاجتماعية كمهنة تتعامل مع الإنسان والبيئة من عدة جوانب :

أولها : أن الخدمة الاجتماعية كما يصفها (فدريكو) هي أكثر مهن الرعاية الاجتماعية تعاملًا مع المواطنين بنظرة شمولية متكاملة ؛ إذ أنها تتعامل مع مجال حياة الإنسان كليًا ومحاولة في نفس الوقت استخدام موارد المجتمع وإمكانياته لإشباع احتياجاته [١] (ص ٢٣٠) ويؤكد آخرون على أهمية الخدمة الاجتماعية للمجتمع حيث يصفونها بأنها الضمير الاجتماعي للأمة [٢] (ص ٣) .

ثانيها : اعتماد الخدمة الاجتماعية كمهنة على نظرية الاتساق الاجتماعية كنظرية قاعدية ، حيث إنها تحقق التكامل المعرفي للمهنة بجانب توحيد نظرتها وتحليلها للوحدات الاجتماعية التي تتفاعل معها ، كما أن هذه النظرية تحقق رغبة الخدمة الاجتماعية التي تتفاعل معها ، كما أن هذه النظرية تحقق رغبة الخدمة الاجتماعية في النظر إلى الفرد (الإنسان) متفاعلًا ومتكاملًا مع بيئته [٣] (ص ٦١ - ٦٦) ، ومن هنا تأتي أهمية النظر إلى البيئة عند التعامل مع الإنسان كفرد أو كعضو في جماعة أو كمواطن في مجتمع محلي أو قومي .

ثالثها : أن الخدمة الاجتماعية تهدف ضمن ما تهدف إليه إلى إحداث تغييرات مرغوب فيها في الإنسان ، وذلك بقصد إيجاد تكيف متبادل بين الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية بمكوناتها الاجتماعية والطبيعية لحل المشكلات المختلفة والوقاية منها ، وهي في ذلك تنظر إلى الإنسان باعتباره المكون الأساسي للبيئة وأهم عناصرها .

رابعها : أن للخدمة الاجتماعية دورها المهم في التربية البيئية من خلال العمل في المجالات والمؤسسات المختلفة ، وتؤكد على أن التربية البيئية عملية مستمرة من المهد إلى اللحد ، وتستهدف تعريف الإنسان بحقوقه البيئية ، وتوضيح أساليب حمايتها ، والمساهمة في خلق رأي عام مستنير نحو البيئة ، واستثارة الإنسان للمشاركة في حماية

---

(١) Ronald C.Federic: The Social Welfare Institution; An Introduction (Lexington; DC.Health and Company, Third Edition 1980).

(٢) Dean H.Hepworth & J.Ann Larsen, Direct Social Work Practice: Theory and Skills, (lll: The Dorsey Press; 1982).

(٣) Beulah Roberts Comptan & Burt Galaway: Social Work Processes (lll: Dorsy Press1975).

البيئة ومواجهة مشكلاتها ، وهي في سبيل ذلك تؤمن بأهمية الجوانب التالية :

* الإسهام في إحداث تغيير حقيقي في سلوك الناس تجاه بيئتهم ، بحيث يؤدي ذلك إلى إيجاد الشخصية المنضبطة ذاتها والتي تتصرف في البيئة بروح المسؤولية .

* مساعدة الناس على إدراك المشكلات البيئية المختلفة وخطورتها وأسبابها ودورهم في إحداث هذه المشكلات ، وكيفية الوقاية منها ومواجهتها .

* مساعدة الناس على تبني مشروعات وبرامج تستهدف حماية البيئة وتحسينها .

* النظر إلى الفقر على أنه نوع من تدهور البيئة ، وبالتالي فإن حماية البيئة في المجتمعات النامية والأحياء المتخلفة يتطلب تحقيق التنمية كشرط لازم لذلك .

* أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا تقيده بيئته ، ومن ثَمَّ فهو يستطيع أن يغير فيها ، ولا ينبغي له أن يحميها فقط ، بل عليه أيضًا أن يعمل على تحسينها .

* دراسة المشكلات البيئية دراسة شاملة متكاملة لبحث العلاقات المتبادلة بينها ، ودور الإنسان في خلقها ، وكيفية التخطيط لمواجهتها .

* أن المشكلات البيئية ليست قاصرة على مشكلات الاستخدام الضار أو غير الرشيد للموارد الطبيعية أو مشكلات التلوث ، بل تمتد لتشمل العديد من مشكلات التخلف مثل نقص السكن ، وسوء ظروف الصحة العامة وسوء التغذية ، وقصور أساليب الإدارة والإنتاج ، وبعبارة أخرى تشمل جميع المشكلات الناجمة عن الفقر والتخلف .

ثالثًا : مهمة الإنسان في البيئة كما حددها الإسلام

خلق اللَّه الكون بما فيه ومن فيه – كما يقرر القرآن الكريم – قبل أن يخلق الإنسان ، فالإنسان هو الحلقة الأخيرة في سلسلة المخلوقات في هذا الكون الرحب الفسيح ، وفي ذلك إشارة إلى أمرين من الأهمية يمكن إبرازهما ، الأمر الأول : أن هذا الكون كله مخلوق للإنسان ليؤدي مهمته المقدسة في هذه الحياة ؛ ففي الحديث القدسي : « **يا ابن آدم خلقت الأشيئاء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له** » (ص ٤٦) ، والأمر الثاني : أن الإنسان هو سيد هذا الكون وأرقى المخلوقات مرتبة ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] .

– ويوضح القرآن الكريم كيف أن الكون كله خلق قبل خلق الإنسان في قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ أولًا بخلق الأرض سبعًا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ، ثم أعاليه بعد ذلك [١] (ص ٤٨) ، ثم يعقب القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ، ولا شك أن المراد بالخليفة هنا ، كما أجمع العلماء ليس « آدم » فحسب ، وإنما المراد هو جنس الإنسان كله [٢] (ص ٤٩) .

– وهكذا خلق اللَّه الكون ، ثم خلق الإنسان من أجل مهمة أوضحها القرآن في كونه خليفة للَّه في هذه الأرض ، تلك هي وظيفة الإنسان ، وهذه الخلافة تعني أول ما تعني تعمير الأرض بإشاعة الخير والسلام فيها ، والعمل على إظهار عظمة الخالق وقدرته عن طريق الانتفاع الإيجابي بكل ما خلقه اللَّه . ويتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ، ومعنى استعمركم : أي طلب منكم عمارتها وذلك لا يتأتي إلا بأمرين ؛ أولهما : أن تبقى الصالح على صلاحه ولا تفسده وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه [٣] (ص ١٥) .

– ويحدد القرآن الكريم – إلى جانب هذه الوظيفة ، الغاية التي خُلِق الإنسان من أجلها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨] ، فعبادة اللَّه إذًا هي الغاية التي يجب أن تكون هدف الإنسان في حياته .

– نحن إذًا أمام وظيفة للإنسان يؤديها في هذا الكون (البيئة) بوحي من خالقه وغاية نهائية يرمي إلى تحقيقها من خلال وأثناء أدائه لهذه الوظيفة ، ولا شك أن الوظيفة مرتبطة بالغاية ارتباطًا وثيقًا ولا تنفصل عنها ، كما سيتضح فيما بعد .

العلاقة بين الوظيفة والغاية :

– إن وظيفة الإنسان تقوم – كما أوضحنا – على تحقيق مبدأ الاستخلاف الذي

---

(١) محمد متولي الشعراوي : « الطريق إلى اللَّه » ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ، (١٤٠٠هـ) .
(٢) محمد علي الصابوني ، مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة ، بدون تاريخ .
(٣) أحمد زين : « حوار مع الشيخ الشعراوي » ، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط. ١ ، القاهرة ، (١٩٧٧م) .

يقوم على أن الإنسان هو خليفة اللَّه في هذا العالم (البيئة) ، بُعث لتطويره وإعماره وتذليل صعابه والاستجابة لتحدياته من أجل تسوية أرضه كي تكون أكثر ملاءمة لحياة مطمئنة تعلو على الضرورات بعد أن تحرر منه وتكون أكثر قدرة للتوجه إلى خالقها جل وعلا ، إذن فمسألة الاستخلاف هذه تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر : ٣٩] ، وغير ذلك من الآيات [١] .

– على أن مبدأ الاستخلاف هذا يبدو خلال هذه الآيات مرتبطًا بمتصل ، يتمثل أحد طرفيه في العمل الجاد والتعمير والإبلاغ ومجانبة الإفساد في الأرض ، ويتمثل الطرف الآخر في تلقي القيم ، والتعاليم والشرائع عن اللَّه ، والالتزام الجاد بها خلال ممارسة الجهد البشري في البيئة بمفهومها الشامل في إطار قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

– ونود أن نؤكد على أن العلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة (ذات ... اتجاهين) بحيث إن افتقاد أي منهما في مسيرة الإنسان في الكون سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة معًا .

– وفي هذا الإطار ؛ فالإنسان مطالب بتعمير الدنيا وإحيائها كي ينعم الجميع بخيراتها وتسخير طاقاتها وإمكاناتها التي خلقها اللَّه له لخدمته وخدمة الأجيال التي تعقبه ، وفي هذا المعنى ورد الحديث الشريف : « **إن الدنيا حلوة خضرة ، وأن اللَّه مستخلفكم فيها**

---

(١) ومن الآيات التي تؤكد على معنى الاستخلاف قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٤] .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

فناظر كيف تعملون » [١] ، وهو في سعيه نحو هذا الهدف لا بد أن يلتزم بمنهج اللَّه الذي أنزله إليه ليضبط حركته في الكون كما أراد له خالق الكون . ولكي يقوم الإنسان بأعباء قضية الاستخلاف فإن ذلك يستلزم عدة أمور نوضحها فيما يلي :

١ – **الخبرة والعلم** : أي أن يكون للإنسان الخبرة والعلم الكافي بما يمكنه من أداء هذه المهمة المقدسة ، ولقد أنعم اللَّه على الإنسان بما يحتاج إليه في هذا السبيل ، فمنحه القدرة على التعليم والانتفاع بكل ما تقع عليه حين منحه المعرفة التامة لخصائص الأشياء وأسمائها : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣١ – ٣٣] .

– وتوضح الآيات الكريمة أن الإنسان لم يبدأ من فراغ ، بل خلقه عالمًا مزودًا بالقدرات التي تمكنه من القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وعمارة الحياة ، حيث كانت بداية المعرفة الإنسانية بهذا الكون ذلك العلم الوهبي لأبينا آدم عليه السلام ، ويفسر العلماء تعبير « الأسماء كلها » الوارد في الآيات السابقة بأنها [٢] (ص ٣٢) ، أسماء كل الكائنات الحية والجمادات التي خلقها اللَّه تعالى وألهم أبانا آدم معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها في شمول يقتضيه لفظ « كلها » أي المعرفة اللازمة لحياته على الأرض والقيام بواجبات الاستخلاف فيها وعبادة اللَّه كما أمر ، وبالطبع فلقد علم آدم بنيه ما تعلمه من علم للَّه ، وورث بنوه ذلك العلم جيلًا بعد جيلٍ وأمة بعد أمة بأن القدرة على التعلم واكتساب المعرفة هي ميزة أساسية في الإنسان وضرورة من ضرورات وجوده ، ومن هنا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

– وبالإضافة إلى هذا العلم الوهبي ، فقد أوكل اللَّه تعالى الناس على ما وهبهم من قدرات على اكتساب المعرفة عن طريق النظر والتدبر في أشياء ومكونات هذا الكون واستقراء سنن اللَّه فيه ونواميسه ، وحتى هذا العلم الكسبي المؤسس على النظر والتأمل والتفكر والاستنتاج أو الذي يتم التوصل إليه استجابة لإلحاح الحاجة ، ولم يخل في

---

(١) رواه مسلم والنسائي .

(٢) زغلول راغب النجار : « قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر » ، سلسلة كتاب الأمة ، تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ، الطبعة الأولى ، الكتاب رقم (٢٠) ، أكتوبر (١٩٨٨م) .

أحيان كثيرة عن ومضة من ومضات الإلهام الرباني من قبل ذلك الذي حدث لابني آدم قابيل وهابيل حين اعتدى الأول على الثاني وقتله ثم حار في أمر جثته ماذا يصنع بها ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ ﴾ [المائدة: ٣١] .

٢ – تسخير المخلوقات للإنسان : ولتتم خلافة الإنسان عن اللَّه في الأرض كان لا بد أن تخضع له المخلوقات الأخرى ليتم انتفاعه بها كما ينبغي ، وتلك نعمة أخرى أسبغها اللَّه عليه ؛ إذ سخرها له وأسس قيادها لنفعه ، ومن اليسير أن ندرك أن تسخير هذه المخلوقات للإنسان يتم **بأحد سبيلين** :

أ – **أولها** : القوانين التي خلق اللَّه العالم عليها وجعلها بحيث تسد حاجات الإنسان المتباينة دون أن يكون له يد في تسخيرها أو تسييرها أو قدرة على تغيير مجراها ، وقد عبر عنها القرآن الكريم في أكثر من موضع مثل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ، ٣٣] ، وغيرها من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى (١) .

ب – **والطريق الثاني لتسخير المخلوقات الأخرى للإنسان** : هو القدرة على التعلم التي وهب اللَّه الإنسان إياها وبواسطتها يستطيع أن يَخضع هذه المخلوقات لإرادته ويوجهها الوجهة التي تصلح من شأنه وتسد من حاجته ، وقد عبر القرآن الكريم عنها بمثل قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا

(١) انظر أيضًا قوله تعالى ؛

– ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۗ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠– ١٢] .

– ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٨– ٢٠]

– ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠] .

بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ - ٨] (١) .

- ولما كان النوع الثاني من التسخير - والذي للإنسان يد في بعض نواحيه - مبنيًّا على النوع الأول ومعتمدًا عليه - إذ لولا خلق اللَّه العالم وما فيه لما كان هناك مكان للإنسان ولا مجال لاستعمال قدراته - كان من الحق أن يكون كلاهما من فضل اللَّه على النوع الإنساني ، وهو ما تجده في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣] .

- وهكذا يتبين من العرض السابق أن اللَّه خلق الإنسان من أجل وظيفة يؤديها في هذا الكون وهي القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض كما أراد اللَّه ، ولقد وهبه اللَّه - كما بينا - كل ما يمكنه من القيام بهذه المهمة .

- ونأتي إلى الغاية من وجود هذا الإنسان في الكون والهدف من أداء هذه الوظيفة تلك الغاية وذلك الهدف الذي يتمثل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فعبادة اللَّه إذًا هي الغاية التي يجب أن تكون هدف الإنسان في حياته ، ولكن ما معنى هذه العبادة ؟

---

(١) انظر أيضًا قوله تعالى :

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨٠ ، ٨١] .

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣] .

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] ، وغير ذلك من الآيات التي تذخر بها سور القرآن الكريم ولا يتسع المقام لحصرها .

معنى العبادة في الإسلام :

- إننا نعرف أن الإسلام لا يقر الانقطاع الكلي عن العلم باسم الدين وعبادة اللَّه ؛ لأن ذلك لا يحقق المهمة الأولى للإنسان في الأرض وهي خلافته للَّه ﷻ ، كما بينا أن تعاليم الإسلام تأبى أن تحدد العبادة المطلوبة منًّا بما هو شائع من أن العبادات شيء والمعاملات شيء آخر ، وهو ما يفهمه البعض من كتب الفقه الإسلامي عندما تفصل في تبويبها بين العبادات والمعاملات ، وتأبى كذلك تعاليم الإسلام أن تحدد العبادة بأنها الصلة بين الإنسان وربه فحسب بغض النظر عن نوع الصلة التي تكون بينه وبين بني جنسه ، وغيرهم من مخلوقات اللَّه في هذا الكون .

- وإذا كان ذلك كذلك .. فما المعنى المقصود بالعبادة ؟

إن العبادة التي يتطلبها الإسلام من أتباعه هي السير في الطريق التي تؤدي إلى تحقيق خلافتهم عن اللَّه في الأرض ، ومن لوازم هذا - بعد الإيمان باللَّه وأداء العبادات المشروعة والمقررة - الضرب في الأرض ، والتعاون مع الغير ، وأداء الواجب ، والمحافظة على حقوق الآخرين ، واستخدام ما سخر اللَّه له فيما يرضي اللَّه تعالى ، والالتزام بأن يكون عضوًا فاعلًا ونافعًا في هذا الكون ومصلحًا إليه لا مفسدًا فيه ، وهكذا يتضح لنا ذلك الارتباط الوثيق بين الوظيفة والغاية .

الوظيفة : هي تحقق مبدأ الاستخلاف القائم على النظر في الكون والكشف عن أسراره والتعرف على نواميس اللَّه فيه ؛ لتطبيق تلك الكشوف والقوانين في استثمار ثروات الأرض وإحكام السيطرة عليها ... وكل هذه الأمور هي من واجبات الاستخلاف ، ولا تتوقف هذه الجهود عند هذا الحد فحسب وإنما ينبغي أن يكون ذلك كله طريقًا للإنسان للتعرف على خالقه وإعجازه في خلقه وهما من واجبات العبودية للَّه .

الغاية : تلك العبودية التي تمثل الضمان الوحيد لعدم استخدام معطيات الجيد الإنساني والعلم والتقليدية في غير طاعة اللَّه فضلًا عن سوء توظيفها في العديد من صور الفساد والإفساد المنتشرة في عالمنا اليوم .

- ومن هنا فإن الإنسان وفقًا للتصور الإسلامي لا يرى في الكون عدوًّا له من الواجب أن يقهره ويقف في وجهه ويتحداه ، وإنما يرى فيه خلقًا سخره اللَّه له ينسجم معه بالطاعة ، كما ينسجم بتفهم السنن الإلهية التي تحكمه ويتوافق مع ظروفه بالالتزام بالحق ، كما يتوافق بتفهم القوانين التي تحكم تلك الظروف ويرضى بكل مجريات

الأمور فيه بعد استنفاد طاقته وأقصى جهده لارضاء المقهور ، ولكن رضاء المستسلم للّه الذي يؤمن بأن أمور الكون وما فيه كلها بيد الخالق (ص ٧٢ ، ١٩) .

– ومن هنا فإن كل جهد للإنسان في هذا الكون ينسجم مع الغاية التي من أجلها خلق يصبح جهدًا مأمورًا به شرعًا في التصور الإسلامي ، والعكس صحيح فإن كل جهد لا ينسجم مع هذه الغاية يصبح لونًا من ألوان الفساد والإفساد الذي يحاربه الإسلام ويؤثر من يقوم به .

ويرتبط بذلك أمران أساسيان هما :

أ – **أن عبودية الإنسان لله** : وهي جوهر الدين ومحور التدين وأولى عقائد الإسلام والمدخل إلى رحابه هذه العقيدة الدينية العظمى على أهميتها هذه نجد أن الإسلام قد اعتبرها الحق الذي استوجبه اللّه ﷻ على الإنسان لقاء إنعامه عليه بضرورات الحياة المادية والمعنوية ، فلقاء النعم المادية ولقاء نعمة « الأمن » استحق اللّه ﷻ من الإنسان أن يفرده بالألوهية والعبادة ، قال تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش : ١ – ٤] .

ب – **الأمر الثاني** : أن صلاح أمر « الدين » بهذا المعنى موقوف على صلاح أمر « الدنيا » ويستحيل أن يصلح أمر الدين إلا إذا صلح أمر الدنيا ، أي إلا إذا تمتع الإنسان بهذه الضرورات التي أوجبها الإسلام [١] (ص ١٦) .

ويعبر الإمام الغزالي عن هذه الحقيقة الإسلامية عندما يقول : إن نظام الدين لا يعمل إلابنظام الدنيا ، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة الأبدان وبقاء الحياة وسلامتها قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن ، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية ، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة ، فإذن إن نظام الدنيا أعني مقادير الحاجة شرط لنظام الدين [٢] (ص ١٢٥) .

---

(١) محمد عمارة : « الإسلام وحقوق الإنسان » ، سلسلة عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، مايو ، (١٩٨٥م) .

(٢) أبو حامد الغزالي : « الاقتصاد في الاعتقاد » ، مطبعة صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ .

رابعًا : مكانة الإنسان المتميزة في البيئة

من أجل أداء الوظيفة الأساسية للإنسان – التي سبق الإشارة إليها – ومن أجل تحقيق الغاية التي خلق من أجلها كان لا بد وأن يكون للإنسان موقفًا متميزًا بين غيره من عالم الأحياء الذين يشاركونه الحياة على كوكب الأرض ، فالإنسان في الواقع كائن حي يشترك مع الأحياء الأخرى بمجموعة الخصائص التي تعرف بمظاهر الحياة ، والإنسان يصنف ضمن العالم الحيواني ؛ لأنه يشترك مع الحيوانات بخصائصها الأساسية ، من حيث نمط بناء الجسم والأسلوب الذي تتم فيه النشاطات الحيوية ، إلا أن اللَّه تعالى وهب الإنسان من الخصائص البيولوجية التي جعلت منه سيد الخلائق ، والتي يمكن أن نجملها فيما يلي : (١٢٩/٢ – ١٣٢) .

١ – **انتصاب القامة** : حيث أثر انتصاب قامة الإنسان في تكيفات عديدة في الهيكل والعضلات وتوزيع الأحشاء الداخلية ، ولعل من أبرز هذه التكيفات : المشي على قدمين وترك اليدين حرتين ليستعملان استعمالات مفيدة ودقيقة ، ولعل الإنسان مدين إلى « القبضة الدقيقة » في اختراع الكتابة التي هي مجموعة من الأساليب يقوم بها الكلام المنطوق بطريقة رمزية تجعل من الممكن توفير الاتصال البعيد المدى على مدونات دقيقة وتوفير نظم التعليم والبحث ، وهذه كلها وظائف حيوية للثقافة الإنسانية ، والإنسان أيضًا مدين للتكوين الخاص ليده الذي مكنه من الوصول إلى عصر الحضارة العلمية والتكنولوجية ، التي هي سبيل الإنسان إلى فهم البيئة وتسخير القوى والطاقات الموجودة فيها لمصلحته .

٢ – **طول مدة استكمال النمو بعد الولادة** : إن هذه الميزة تجعل مدة الرعاية التي يحاط بها الإنسان كبيرة بالمقارنة بالرئيسيات الأخرى ، مما يساعد على أن يبدأ حياته وقد أخذ خبرات متعددة فالإنسان يحتضن صغيره حتى سن الحادية والعشرين ، مؤدبًا ومعلمًا وهي فترة تعادل ثلث حياته في المتوسط يتعرض فيها وبعدها لعملية تعلم مستمرة يتزود خلالها بأساليب الحياة الملائمة للبيئة التي يعيش فيها .

٣ – **تعقيد الدماغ** : ونمو جهاز صوتي راق مكنا الإنسان من النطق بلغة واضحة بيِّنة ، كان لها الأثر في نشوء الثقافة الإنسانية ، التي جعلت من الصعب فصل « الإنسان البيولوجي » عن الإنسان الثقافي ، حيث إنهما متداخلان بشكل كبير ، ومن هنا يرفض الكثيرون القول بأن الإنسان حيوان ناطق ؛ لأن الإنسان قادر على تحقيق درجة عالية من

تمايز السلوك على أساس سيكولوجي ، يتجاوز – كثيرًا – حدود التنظيم البيولوجي الصارمة التي نجدها في بعض المجتمعات الحيوانية المنظمة ؛ كمجتمعات النمل والنحل . هذا هو الإنسان كائن حي فريد متميز بين أحياء البيئة المتعددة والمتنوعة لا يرقى إلى إمكانته وقدراته أي منها ، فهو غير مقيد في بيئة واحدة ؛ بل يعيش في كل البيئات ؛ ويغير فيها حتى تناسبه ولا يتغير من أجلها ، كما تفعل الحيوانات المتكيفة مع ظروف بيئتها .

– وإلى جانب هذه المميزات والخصائص البيولوجية ، فإن اللَّه قد ميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية بعدة مميزات أخرى ، نذكر منها :

أ – أن اللَّه تعالى عندما خلقه نفخ فيه من روحه ، فهو الكائن الوحيد من بين الكائنات الحية الذي اختص بهذه الخصوصية ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٦ – ٩] . وهكذا فإن روح اللَّه التي نفخت فيه تفضله عن سائر المخلوقات وتهبه علاقته الفريدة بخالقه أنه كائن قادر على السلوك العقلي ، والحكم على الأشياء ، والتقرير الإرادي ، والاختيار الأخلاقي .

ب – أن الإنسان هو كائن مكلف : وهي خاصية ينفرد بها الإنسان بين سائر المخلوقات والكائنات الحية ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، والأمانة كما يرى علماء التفسير هي أمانة التكليف ، حسب منهج اللَّه تعالى : افعل ولا تفعل (ص ٣٢) [١] .

جـ – أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يصنع الحضارة من بين المخلوقات جميعًا بما وهبه اللَّه من خصائص وإمكانات تميزه عن غيره من المخلوقات ، هذه الخصائص جسمية كانت أو ذهنية مكنت له من التوصل إلى اكتشاف فوائد كثيرة في أشياء متعددة مما كان حوله وتحت بصره كالنار وبعض المعادن ، ومكَّنته من ابتكار أشياء أعانته على تيسير حياته ؛ كالأسلحة والفخار ، وهذه الأشياء نفسها شحذت ذهنه ، وأطلقت عقله ،

---

(١) جلال العشري : « الإنسان في الإسلام » مجلة الفيصل ، دار الفيصل الثقافية السعودية ، العدد (٥٩) السنة الخامسة، مارس (١٩٨٢م) .

فمضى يستزيد من الاكتشافات والمبتكرات زمانًا بعد زمان (ص ٣١) [١] .

تفاعل الإنسان مع البيئة :

وتأسيسًا على ما سبق ، يمكن لنا أن نقرر أن التفاعل بين الإنسان ، قدم ظهور الجنس البشري على كوكب الأرض ، منذ أن هبط آدم ليلتقي بحواء على الأرض لتبدأ مسيرة الجنس البشري على هذا الكوكب ، وتبدأ في نفس الوقت رسالة هذا الجنس كما أرادها الخالق . وكما سبق أن أشرنا فلقد شاءت حكمة اللَّه ﷻ أن يجعل من الأرض محورًا للحياة الإنسانية في هذا النسق الكوني العظيم فغمرها بجميع ما يحتاج إليه الإنسان من نبات وحيوان وثروات طبيعية وطاقة ، وأدار الحياة على الكرة الأرضية في تناسق بديع وتوازن محكم لا تكاد تجد له شبيه في هذا الكون ، فتجسدت المعجزة الإلهية الكبرى في تجدد الحياة في دورات متتابعة متكاملة مكَّنت الإنسان من الإفادة من الثروات الطبيعية الهائلة والتمتع بما في الأرض من مياه وغابات ومعادن وغيرها من المكونات الحية أو غير الحية ، ومن تطوير حضارات متقدمة أثرت الحياة البشرية وأتاحت لها فرصة الارتقاء بالجهاد الإنساني لتحقيق التنمية والتقدم المضطرب والرفاهية للملايين من سكان هذا العالم ، وتحقيق التقارب الذي نعيشه بين أجزاء الكرة الأرضية بفضل التقدم الذي أحرزه الإنسان في وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة (ص ٨) [٢] .

وإذا نظرنا إلى علاقة الإنسان بالبيئة وتطور هذه العلاقة منذ بدء الخليقة ، لوجدنا أنها مرت بمراحل تروى على شكل قمة تعكس هذا التطور وندرة ظهور المشكلات البيئية وتعقدها ، كما تعكس تحول الإنسان في موقفه من البيئة المحيطة .

ويمكن استعراض تاريخ علاقة الإنسان بالبيئة والمراحل التي مرَّت بها هذه العلاقة بإيجاز على النحو التالي : (ص ٢٠ ، ٢٧٨) .

---

(١) حسين مؤنس : « الحضارة » ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١ ، الكويت ، يناير ، (١٩٧٨م) .

(٢) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية : « مستقبلنا المشترك » ترجمة محمد كامل عرف ، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب رقم (١٢٤) ، الكويت ، (١٩٨٩م) .

راجع أيضًا في هذا العدد كل من : – رشيد الحمد محمد سعيد صباريني ، البيئة ومشكلاتها ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١٣٤ – ١٣٨) .

– محمد عبد الفتاح القصاص : « الإنسان والبيئة » من منشورات اليونسكو بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة ، القاهرة ، (١٩٧٨م) ، (ص ٥١٥ – ٥١٧) .

١ – مرحلة الصيد والجمع :

حيث كان الإنسان يعيش وحشيًّا معتصمًا بالغابات يعيش على أغصانها وثمارها أول الأمر ؛ إذ أنه تميز في هذه المرحلة بالعجز والضعف عن حماية نفسه ، فلجأ إلى أمن الأشجار في الغابات ، وكان يجمع طعامه من ثمار النباتات أو أوراقه ، وكذلك يجمع ما يحتاجه للملبس والمسكن من ألياف الأعشاب على البيئة خينًا وضعيفًا لا يجاوز أثر غيره من آكلات العشب أو الحيوانات التي تجمع العسل (رحيق الأشجار) أو بيض الشجر ، وكان الإنسان في هذه المرحلة مشغول بحماية نفسه من غوائل البيئة التي تهدده ليل نهار في صورة أمطار وعواصف وثلوج وحيوانات متوحشة .... إلخ .

– ثم تحول الإنسان بعد ذلك بمرور الوقت وتطور الحياة البشرية إلى مرحلة أخرى يعبر عنه بمرحلة « الصيد والقنص » ويشير حسين مؤنس إلى هذه المرحلة ، حين يقرر قائلًا [١] .

« ولأسباب لم يكشف النقاب عنها حتى اليوم بارح الإنسان الغابات والأشجار ، ونزل إلى البطاح وهام على وجهه فيها ، طالبًا قوته بالصيد وجمع الثمار ، فإذا جن الليل لجأ إلى النيران والكهوف يحتمي بها ، وانقضت دهور متطاولة وهو على هذه الحالة .

والذي يهمنا التأكيد عليه في هذا الصدد أن أثر الإنسان في البيئة أصبح في هذه المرحلة يجاوز أثر آكلات العشب التي تميزت به المرحلة السابقة ، وانتقل إلى أثر آكلات اللحوم ، وهكذا تقدم الإنسان خطوة إلى الأمام في مجال علاقته بالبيئة وتفاعله معها وتأثيره فيها والبدء في إحكام سيطرته على بعض أجزائها وعناصرها ، حيث تعلم الإنسان في هذه المرحلة أساسيات التخطيط للقنص والصيد ؛ لأنه جهد يحتاج إلى العمل المشترك لجماعة متعاونة ، واستحدث الإنسان تكنولوجيا الصيد ، وطور أدواته من مصيدة وفخاخ ورماح ، وأهم من ذلك كله أن الإنسان اكتشف في هذه المرحلة النار وبها أصبحت له قدرة على التأثير البيئي تزيد بكثير عن قوته العظيمة .

٢ – مرحلة استئناس الحيوان والرعي :

وفي هذه المرحلة تحول إطار العلاقات البيئية للإنسان تحولًا بالغًا ، حين حول الإنسان أنواعًا من الحيوانات من الحياة البرية إلى حياة الاعتماد على الإنسان ، وجعل من هذه الحيوانات قطعانًا متكاثفة العدد ومتكاثفة الأثر البيئي على الكساء النباتي ، وتعلم

---

(١) حسين مؤنس : « الحضارة » ، سلسلة عالم المعرفة ، الكتاب رقم (١) الكويت ، (١٩٧٨م) ، (ص ٧٠ ، ٧٢) .

الإنسان حياة الرحلة الموسمية من المرابع إلى المصايف ، سعيًا وراء التحولات الموسمية في الكساء النباتي ، وتميزت هذه المرحلة باتساع مدى تأثير الإنسان في البيئة من حوله .

٣ – مرحلة الزراعة والاستقرار :

حيث استكمل الإنسان – في هذه المرحلة – سيادته على الأحوال والمكونات البيئية ، وبدأ يتحول من جمع الطعام إلى إنتاجه ، واستطاع أن يبدل الكساء النباتي البري بألوان وأنماط من الكساء النباتي يزرعها ويفلحها ، وهو يستعمل مياه الأنهار يضبطها بما ينشئه من سدود وما يشقه من قنوات وترع لري الأرض التي استزرعها ، وهو يبني القرى التي يعيش فيها حيث تتكاتف الجماعة الإنسانية ، واستحدث الإنسان آلات الحرث والري والحصاد واستخدام الحيوان في عمله ، أي أنه استخدم مصادر القوة والطاقة البيولوجية ، بالإضافة إلى قوة عضلاته .

– ومما سبق نلحظ أن الإنسان في مرحلة الزراعة أصبحت له آثار بيئية هائلة ، وأنه أحدث تغيرات بيئية بارزة المعالم ، ولكننا نتبين أنه لم ينشئ في عمله موادًا كيمائية غريبة على النظم البيئية ، وهذا يعني أن مخلفات العمل والحياة الإنسانية والنشاط البشري كانت مما تستطيع الدورات الطبيعية أن تستوعبه وتجربه في سلاسل تحولاتها بفعل الكائنات الأرضية التي تتم عمليات التحلل الطبيعي .

٤ – عصرالصناعة :

ثم يجيء عصر الصناعة وما اتصل به من عمران تميزت به حياة الحضر الصناعي عن حياة الريف الزراعي ، وأصبح في إمكان الإنسان أن يعيش في بيئة من صنعه بما يبني من مساكن ويهيئ لها من وسائل التدفئة والتبريد والإضاءة ، وطوع الإنسان مصادر القوة والطاقة التي جعلت بين يديه من آلالات الهائلة ما جعل آثار البيئة امتدادًا على مساحة من الأرض وفي البحار والهواء وعلى جميع مكونات البيئة .

– ويجدر بنا أن نؤكد في هذا الصدد على عدة أمور لها أهميتها في مجال علاقة الإنسان بالبيئة في هذه المرحلة :

أ – أن الإنسان تمكن في هذه المرحلة من استغلال مصادر حفرية للوقود هي الفحم والبترول ، وبذلك أصبح يحرق موادًّا كربونية أكثر بكثير من قدرة النظم البيئية على الاستيعاب ، ونتج عن ذلك تزايد مضطرد من أكاسيد الكربون في الهواء الجوي (تغير كمي في البيئة) .

ب – أن الصناعة أصبحت قادرة على إنشاء مركبات كيميائية طارئة على النظم البيئية غريبة عليها ، أي أن التحولات الطبيعية في دورات المواد البيئية غير قادرة على استيعابها ، إذ أن النظم البيئية لا تشتمل على كائنات قادرة على تحليلها وإرجاعها إلى عناصرها الأولى كما تفعل بالمركبات العضوية الطبيعية .

جـ – أن الإنسان أصبح يعتمد في مجال توليد الطاقة على مصادر مغرية غير متجددة بالإضافة إلى المصادر المتجددة ، مما ينتج عنه خطر استنزاف هذه المصادر غير المتجددة للنظام البيئي [١] .

– ومع تطور الحياة الإنسانية والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي يحرزه الإنسان يومًا بعد يوم ازداد تأثير الإنسان على البيئة ، وتحكمه فيها ، وأصبح الإنسان يمثل في نظر العلماء والمهتمين بالبيئة – مشكلة البيئة .

ولقد ترتب على تطور العلاقة بين الإنسان والبيئة العديد من المشكلات التي يمكن أن نـميـز أهمها على النحو التالي :

١ – النمو الانفجاري في عدد السكان وما يترتب عليه من صعوبة توفير الغذاء ومتطلبات الحياة الأخرى ، فضلًا عن الأثر التي يحدثها هذا العدد الهائل من السكان في النظم البيئية .

٢ – الثورة العلمية والتكنولوجية ، وتسارع التغيرات التي أحدثتها وتحدثها هذه الثورة في البيئة وضخامتها وشمولية بعض أثرها ، حيث برزت قضيتان أو مشكلتان على جانب كبير من الخطورة هما : تلوث البيئة ، واستنزاف المصادر والموارد الطبيعية ، وهما قضيتان أبسط مايمكن أن يقال عنهما أنهما تهددان حياة الأجيال القادمة .

٣ – اختلال التوازن الطبيعي في البيئة حيث تعرضت الأنظمة البيئية ولا زالت

---

(١) حيث تصنف المصادر الطبيعية في البيئة إلى ثلاثة أنواع من الموارد هي :

أ – موارد دائمة : وهي المصادر التي لا تنضب ، مهما استهلك منها الإنسان ، وستظل متوفرة (حسب التوقعات العلمية) دائمًا ، وهذه الموارد من قبيل الشمس والهواء والماء .

ب – موارد متجددة : وهي المصادر الطبيعية التي تمتلك القدرة على التجديد باستمرار وتمثلها : النباتات وصور الحياة الأخرى وكذلك التربة .

جـ – الموارد غير المتجددة : هي مصادر طبيعية لاتتجدد أو تجدد ببطء حيث توجد بكميات محدودة في البيئة من شأنها أن تختفي ، إن آجلًا أو عاجلًا ، مثل الفحم الحجري ، البترول ، الغاز الطبيعي ، والخامات المعدنية .

تتعرض لتغييرات من صنع الإنسان لم تقدر في الكثير من الأحيان على استيعابها في سلاسلها ودوراتها الطبيعية ، كما أدى إلى إرباكها أو تدهورها .

خامسًا : مكونات المنهج الإسلامي في رعاية البيئة

إن اللَّه وهبنا الكون بكل مظاهر جماله ، وأنماط بهائه لا لنلهو به ونعبث بل لنعايشه في سلام ووئام ، تلك حقيقة ينبغي أن نقِررها بداءة ؛ ذلك لأنه إذا كان الإنسان – كما أشرنا – هو ذلك الكائن الحي الذي شاءت القدرة الإلهية أن تكوِّنه وترفعه فوجد كثيرًا من الكائنات الأخرى فسخرت له الوجود كله حتى يمكنه تحقيق خلافته لله على هذا الكوكب الأرضي ، فإنها قد حملته مسؤولية حمايته ورعايته ، ومن هنا كان على الإنسان العاقل الرشيد أن يقابل النعم بالشكر والعرفان لا بالجحود والنكران أو التمرد والعصيان ، إن الشريعة الإسلامية هي أعظم نظام للحياة وأنسب شرائع العالم حتى آخر يوم في الدنيا ، إنها الشريعة التي نفت فوقية الظواهر الطبيعية ، فلم يعد لها قصر يؤدي بالإنسان إلى السجود لها ، كما كان يحدث في عهود غابرة ، ثم هي أيضًا دعت إلى معايشة هذه الظواهر الطبيعية والمكونات البيئية في سلام وحسن جوار ، ونبذ كل صنوف العداء لعناصر البيئة أو إضاعة التناغم والانسجام الذي أودعه اللَّه في كل جزئية فيها .

إنها علاقة ألفة ومحبة واحترام وتواد تلك التي نظمها الإسلام بين الإنسان وما تحتويه بيئته من موجودات حية وغير حية ، إن الإسلام تتسع دائرته لتشمل كل نواحي الحياة فلا تجد خيرًا أوسعادة إلا وقد وجه لها ودفع للأخذ بأسبابها ، ولا تجد فسادًا إلا وقد نهى عنه وحذر منه ولعل دعوته إلى حسن تعامل الإنسان مع بيئته لواحدة من شمولية هذا الدين الحنيف .

ويمكن أن نجمل الجوانب الأساسية التي تشكل منهج الإسلام في رعاية البيئة على النحو التالي :

نتصور أن هذا المنهج الذي يضبط علاقة الإنسان بالبيئة يتكون هيكله من ثلاثة أجزاء رئيسية هي : الأسس والأهداف والمنهج أو الإجراءات . وهذه الإجراءات في الواقع مبنية على مجموعة من المعتقدات الإسلامية التي تحدد المنهج الإسلامي الذي يرمي إلى تحقيق الأهداف الإسلامية فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالبيئة ، ويمكن أن نوضح النقاط الثلاث على النحو التالي :

أولًا - الأسس (المعتقدات) :

وتقوم على أمرين أساسيين يشكلان حدود وضوابط علاقة الإنسان بالبيئة وهما :

أ – الإيمان بنظام إسلامي في السلوك والتصرف حيال البيئة .

ب – الإيمان بنظام إلهي في الثواب والعقاب في ضوء الالتزام بالسلوك الإسلامي من عدمه .

وهذا يعني أن الإنسان مطالب (وفقًا للتصور الإسلامي) بأن يقيم علاقته بالبيئة التي يعيش فيها ملتزمًا بألوان من السلوكيات والتصرفات التي رسمها المنهج الإسلامي المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ، والتي تحكم هذه العلاقة وتضبط مسارها ، وإن هذا الالتزام بالنظام الإسلامي في السلوك لن يتأثر إلا بعد الإيمان بنظام إلهي في الثواب والعقاب ، والثواب لمن التزم بالسلوك الإسلامي نحو البيئة والعقاب لمن خالف هذا السلوك .

وفي ضوء هذا الفهم يمكن لنا أن نحدد الأسس التي يستند إليها التصور الإسلامي في هذا الصدد في النقاط التالية :

١ – تبصير الإنسان بنواميس الكون ومكوناته :

أ – **التوازن الطبيعي للكون** : يوجب الإسلام على الإنسان أن ينظر ويتأمل ويتدبر في نواميس الكون من حوله ، وتتجلى أهمية ذلك التوجيه إذا ما علمنا أن البيئة الطبيعية (الكون) تتميز بتوازن دقيق محكم يبين عناصرها المختلفة ، فلو أن ظرفًا ما أدى إلى إحداث تغيير من نوع ما في أحد هذه العناصر ؛ فإنه بعد فترة قليلة قد تؤدي بعض الظروف الطبيعية الأخرى إلى تلافي آثار هذا التغيير ليعود النظام البيئي إلى صورة أخرى من صور التوازن ، ومن الأمثلة على ذلك أن النار إذا دمرت جزءًا من إحدى الغابات ، فإنه بعد عدة أعوام قليلة تعود هذه الأرض التي احترقت أشجارها إلى طبيعتها الأولى تنمو بها الحشائش والأعشاب ، ثم سرعان ما تكتسى بالأشجار الباسقة مرة أخرى (ص ٣ ، ١٨) وهكذا ، فلقد خلق اللَّه هذا الكون بمكوناته بمقدار وميزان وترتيب وحساب دقيق ، بحيث يتلاءم كل شيء مع مكانه وزمانه ، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه فلا يعطل وظيفته أو يعوق سيرها لما خلقت له ، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ينتظم به سير الوجود كله بما في ذلك الإنسان نفسه .

والأمثلة على ذلك كثيرة نعرض هنا لبعض منها :

– **فالماء مثلاً** : باعتباره مكون من مكونات البيئة غير الحية خلقه اللّه بقدر وأنزله بقدر بحيث لا يقل عن حاجة الكائنات الحية فيكون الجدب والقحط والهلاك ، ولا يزيد عنها فيكون الفرق والضرر ، ولا تطغى المحيطات على اليابسة ولا الملح على العذب وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون : ١٨] .

– **والشمس** : باعتبارها أحد مكونات الكون أحسن اللّه خلقها لتؤدي وظيفتها في إمداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية ، ولكنه خلقها بحيث تجري إلى غايتها في مدار محدود لا تصطدم بكوكب آخر ، ولا تقترب من الأرض قربًا يحرق أحياءها ، ولا تبعد عنها بعدًا يحرمنا الحرارة اللازمة للحياة فيها . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم ليبصر الإنسان بهذه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٨ – ٤٠] .

وفي هذا الصدد يقول أحد علماء الطبيعة : تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل ٢٤ ساعة أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، ولو افترضنا أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة فماذا سيحدث عندئذٍ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات ، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل قد يتجمد كل منبت في الأرض [(١)] (ص ٤١ ، ٤٢) .

* سبحانه خلق فقدر : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وهكذا فإن الإسلام يوجب على الإنسان أن تتناغم حركته في الكون مع قانون التوازن بحيث تؤدي تصرفاته إلى الحفاظ على التوازن البيئي لا الإخلال به .

ب – الالتفات إلى مكونات البيئة : حيث نجد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تلفت نظر الإنسان إلى هذه المكونات حية كانت أو غير حية ؛ فإلى الماء وأهميته كعنصر من عناصر البيئة يشير القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، ولقد ورد ذكر الماء في القرآن الكريم ثلاثة وستين موضعًا

(١) يوسف القرضاوي : « وجود اللّه » ، مكتبة وهبة القاهرة ، (١٩٧٩م) .

وقد جاء فيها بمعان مختلفة .

- وإلى الأرض : يلفت نظر الإنسان في عدة مواقع : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة: ٢٢] ، وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥] .

- وإلى الأنواع المختلفة من النباتات يشير القرآن الكريم في العديد من آياته : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١] .

- وإلى الفضاء الكوني بما يحويه من مكونات وعناصر يشير قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٥ ، ٦] .

- وإلى عالم الحيوان يشير القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الإنعام: ٣٨] .

وغير ذلك كثير من آيات القرآن الكريم التي تلفت نظر الإنسان إلى ما يحيط به من مكونات بيئية وتدعوه إلى إعمال فكره فيها واستثمارها في تحقيق أعباء الخلافة وعمارة الأرض .

٢ - الإيمان بأن أي سلوك يصدر عن الإنسان لابد وأن يكون لصالح البيئة ومدعمًا لها ومضيفًا إليها ، وأن أي سلوك ضار بالبيئة هو سلوك مرفوض إسلاميًّا يستحق به عقاب اللَّه ﷻ يوم القيامة .

٣ - وفي المقابل فإن الإنسان في الإسلام غير مطالب بأن يقف مكتوف الأيدي أمام النظم البيئية ومكوناتها ، وإنما هو مطالب شرعًا بأن يعمل ويتخذ الأسباب في استثمار هذه المكونات لصالح البشرية ومن أجل حياة كريمة لبني البشر على هذا الكوكب .

ثانيًا : الأهداف :

وتتمثل في هدفين أساسيين بينهما ارتباط وثيق وهما :

١ – تحقيق المنفعة الدينية والأخلاقية .

٢ – تحقيق المنفعة الدنيوية .

فالمنفعة الدينية والأخلاقية إنما تحقق بتحقق الغاية التي من أجلها خلق الإنسان في هذا الكون وهي تحقيق مبدأ العبودية لخالق هذا الكون سعيًا لكسب رضوانه وثوابه : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة : ٥] .

وأما المنفعة الدنيوية فهي تحقيق التنمية والتقدم في إطار التصور الإسلامي الذي يعتمد على ركيزتين أساسيتين ينبغي أن يتنبه لهما الإنسان المسلم في سعيه لتحقيق التنمية المرجوة ، وهما :

أ – **الإعداد الذاتي** : ويتجلى في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ [الأنفال : ٦٠] . فالآية تحث على الإعداد بكافة جوانبه ومجالاته اقتصاديًا واجتماعيًا وبيئيًا وسياسيًا ونفسيًا وعسكريًا وأخلاقيًا وعلميًا ، مع التأكيد على الأخذ بأسباب العلم الحديث ، وابتكار الوسائل والأساليب التي تختزل آثارها الضارة بالبيئة [١] (ص ٢٠٢) ، ولا شك أن سلامة البيئة يعد من العناصر الضرورية لتوفير مقومات الحياة المطلوبة شرعًا ، والاهتمام بالبيئة بالوسائل الوقائية والعلاجية يعد خطوة ضرورية في سبيل تحقيق هذا الإعداد .

ب – **التغيير الذاتي** : والذي يتمثل بوضوح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد : ١١] .

والذي يوضح حد التغيير الإيجابي ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنفال : ٥٣] ، على أنه ينبغي أن تلفت النظر إلى أن التغيير المطروح في القرآن الكريم يمتد إلى كافة المساحات، وسائر المكونات النفسية والجسمية والروحية والعقلية والبيئية ، وكل العلاقات الداخلية والخارجة مع الذات أو مع الآخرين أو مع البيئة المحيطة والتي تمكن الإنسان المسلم من مواجهة حركة الحياة (ص ٣٠ ، ٣٠٣) .

ثالثًا : المنهج أو الإجراءات لتحقيق هذه الأهداف :

ويمكن القول أن المنهج الإسلامي في رعاية البيئة والحفاظ عليها يقوم على عدة

(١) أحمد يوسف محمد بشير : « القيم الدينية كمتغير للتخطيط لتنمية المجتمع المحلي » ، (رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الخدمة الاجتماعية ، جامعة حلوان) القاهرة ، (١٩٨٨م) .

مفاهيم أساسية :

١ – مفهوم الاعتدال :

ونعني به الاعتدال والتوسط في تعامل الإنسان مع مكونات البيئة ، فلقد أجمع علماء العالم وفلاسفته على أن الإنسان يعد من أكبر عوامل اضطراب التوازن الطبيعي في هذا الكون ، ذلك التوازن المحكم الذي وهبه اللَّه لكوننا الأرضي الذي شاء سبحانه أن يكون توازنًا مضبوطًا بقوانين وأسس دقيقة فهو القائل : ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ [الحجر : ١٩] ، إلا أن الإنسان عاقلًا كان أو جاهلًا ، يتدخل في دولاب البيئة بما يفسد عليها نظامها المحكم الدقيق، وهو ينسى أو يتناسى أنه هو نفسه الضحية في نهاية المطاف ، ولقد صور القرآن الكريم هذا الموقف وتنبأ به في قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

ومن هنا أمر الإسلام بالتوسط والاعتدال في كل تصرفات الإنسان، بل أن الإسلام هو دين الوسطية والاعتدال ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] . فالإسلام لا يقر وقوف الإنسان مكتوف الأيدي إزاء النظم البيئية المحيطة به ؛ فإن ذلك يتنافى مع مهمة الخلافة، وكذلك فهو لا يقر استنزاف هذه النظم والجور عليها بما يؤثر على التوازن البيئي ، وإنما على الإنسان أن يتعامل مع هذه النظم بما يمكنه من تطوير حياته ، وأن يضع نصب عينه أن يكون عنصرًا فاعلًا في المحافظة على التوازن البيئي، لا أن يكون مسرفًا يعطي لنفسه كل شهواتها، دون ضابط من عدل أو احترام لحقوق الناس وفق منهج اللَّه .

وهكذا نهى الإسلام عن الإسراف ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾ الذي يعني الإفراط ومجاوزة الحد ووضع الشيء في غير موضعه، وسبق أن أوضحنا أن من أخطر نتائج عدم الاعتدال في علاقة الإنسان بالبيئة هو تدمير التوازن البيئي ، ذلك التوازن الذي يعتبر أحد النواميس التي سنها الخالق لاستمرار الوجود واستمرار الحياة على كوكب الأرض ، وأجمعت كل الدراسات التي دارت حول تلوث البيئة أن هناك علاقة وثيقة بين إسراف الإنسان في تناوله المكونات البيئية وبين التلوث، كما أن الإسراف يفضى إلى مشاكل بيئية أخرى متعددة لا يقتصر تأثيرها على الإنسان وحده بل يمتد ليشمل باقي الأحياء التي تشاركنا الحياة على الأرض ، وخير وسيلة لتجنب الآثار البيئية الناجمة عن الإسراف واستنزاف

الموارد الطبيعية دون فائدة أو دون إدراك لخطورة ذلك تكون باتباع النهج السليم الذي سنَّته الشريعة الإسلامية ألا وهو القصد والاعتدال ، والذي أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] . وأشار إليه قول الإمام الشاطبي : (ص ٣٢ ، ٦٥) . « الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل ، الأخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه ، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة ولا انحلال ، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي من جميع المكلفين غاية الاعتدال » .

٢ – مفهوم المسؤولية الجماعية :

بمعنى مسؤولية الجماعة البشرية في الحفاظ على البيئة ؛ ذلك لأن الضرر الناجم عن سوء التعامل مع مكونات البيئة لا يصيب المتسببين في هذا الضرر فحسب ، وإنما يصيب الآخرين الذين تقاعسوا عن القيام بدورهم في المحافظة على البيئة ومنع هذه التصرفات ، ولذلك أوجب الإسلام على أهل الخير أن يمنعوا أهل الفساد عن الإفساد ، ففي الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **مثل القائم على حدود اللَّه (الإنسان المستقيم) والواقع فيها (المنحرف أو الفاسد) كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ؛ فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا** » [(١)] (ص ٢٩) .

ولقد روى الإمام مالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **لا ضرر ولا ضرار** » ، وقال : « **من ضارَّ لله به** » (ص ٢٨ ، ٣١) .

وهناك قاعدتان يجعلهما كل مسلم أساسًا في الحكم على كل ما يصدر عنه من قول أو فعل : الأولى هي درء المفاسد ... أي دفع الفساد ورده ومنعه حتى لا يقع بالبلاد والعباد فيؤذيهم ، ومنع الشرور والمحافظة على الفرد والمجتمع والبيئة من كل ما يعود عليهم من ضرر حيث لا ضرر بالنفس ولا ضرار بالغير .

أما القاعدة الثانية فهي « جلب المصالح » وبذل كل الجهود ، التي من شأنها أن تحقق منفعة للفرد والمجتمع ، على أن القاعدة الأولى مقدمة على الثانية ، ومن هنا تأتي أهمية

---

(١) وهبة الاصيلي : « حفظ الصحة وسلامة البيئة » ، مجلة الوعي الإسلامي ، تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت ، العدد (٢٧٩) ، نوفمبر ، (١٩٨٧م) .

مسؤولية الإنسان بل والجماعة المسلمة أمام خالقها لا عن الامتناع عن الإضرار بالبيئة والإفساد فيها فحسب ، بل يتعدى الأمر ذلك إلى ضرورة منع الغير من الإضرار والإفساد بالنظم البيئية ، وذلك تحت قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي الآية : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

٣ – تقديم الجانب الوقائي على الجانب العلاجي :

اهتم الإسلام بإرساء الأسس والقواعد التي تنظم علاقة الإنسان بالبيئة والتي تجعل منه عضوًا نافعًا لا مفسدًا فيها ، بأن يتفادى كل ما يمكن أن يحدث في البيئة من المشكلات قبل وقوعها ، خاصةً إذا علمنا أن الإنسان في الواقع هو المشكلة الرئيسية للبيئة كما يقرر علماء البيئة ، وأن المشكلة البيئية هي مشكلة سلوكية في المقام الأول ، ومن هنا اهتم الإسلام بضبط سلوك الإنسان وتصرفاته إزاء مكونات البيئة وعناصرها بما يجنبه الوقوع في المشكلات التي يمكن أن تترتب على سوء تصرفه فيها .

ويمكن أن نذكر هنا بعض الأمثلة في هذا الصدد :

أ – **في مجال الاهتمام بالنظافة العامة والصحة** : هناك العديد من التعاليم الدينية التي تنظم هذا الأمر ، فلقد نهى الإسلام عن قضاء الحاجة في الطريق العام ، أو حتى في الظل الذي به يستظلون وكذلك شواطئ الترع والأنهار والقنوات ، ففي الحديث : « **اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل** » [(١)] ، وقد أُطلق الحديث على هذه السلوكيات « ملاعن » ؛ لأنها تسبب لعن الناس لمن يفعلها ، وقد ثبت أن هذه الأعمال والتصرفات تسبب الأمراض الوبائية والمتوطنة وتساعد على انتشارها .

كما حث الإسلام على النظافة وأكد على أن « الطهور شطر الإيمان » ، وفي القرآن : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ونهى الرسول ﷺ عن التبول في الماء سواء كان راكدًا أو جاريًا [(٢)] (ص ٢٤) .

---

(١) محمد عبد القادر الفقي : « الإسراف وتأثيره على البيئة واستنزاف مواردها » ، مجلة منار الإسلام ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة ، أبو ظبي ، العدد (٨) السنة (١٨) مارس ، (١٩٨٩م) .

(٢) رواه أبو داود وأحمد ومسلم ، انظر : السيد سابق « فقه السنة » العبادات ، المجلد الأول ، دار التراث العربي ، بدون تاريخ (ص ٢٤) .

ولقد أمر الإسلام في الوضوء للصلوات الخمس بغسل الوجه والأيدي والأرجل ومسح الرأس والأذن ، كما طلب منا السواك والمضمضة والاستنشاق ؛ حفظًا للفم والأنف والأسنان ، ففي الحديث : « **لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة** » (رواه الشيخان) ، كذلك أمر الإسلام بغسل اليدين قبل وبعد تناول الطعام ، ففي الحديث : « **بركة الطعام الوضوء قبله وبعده** » (رواه أحمد والترمذي) .

وأمر بنظافة البيوت والشوارع ، وأوصى بالامتناع عن إلقاء القاذورات في الشوارع والطرقات ، ففي الحديث : « **نظِّفوا بيوتكم ولا تشبهوا باليهود التي تجمع الأكباء في دورها** » (رواه مسلم والترمذي) والأكباء أي القاذورات ، ويأمرنا بنظافة الشوارع ، وإماطة الأذى عن طريق الناس ، ففي الحديث : « **من سمَّى اللَّه ورفع حجرًا أو عظمًا أو شجرًا من طريق الناس مشى وقد زحزح نفسه عن النار** » (رواه مسلم والنسائي) .

ويقول أيضًا : « **من آذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه لعنتهم** » (رواه مسلم) وغير ذلك من التعاليم والتوجيهات الإسلامية ، ويكفي أن نعلم أنه ورد في القرآن الكريم ألفاظ التطهر والتطهير والطهارة في أكثر من ثلاثين آية ؛ لإيجاب طهارة النفس المؤمنة والبيئة الإنسانية في الظاهر والباطن .

ب – وفي مجال إنتاج الغذاء والوقاية من المجاعات ونقص الغذاء : وهو من المشكلات البيئية ، فإن الإسلام أعلى شأن الزراعة وجعلها من أصول المكاسب ، ففي الحديث : « **ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة** » (رواه البخاري) ، وهو حديث يدعو صراحة إلى الاهتمام بالزراعة ويبين الغاية منها بالنفع للإنسان والحيوان ويرغب فيها .

كما نهى الإسلام عن ترك الأرض بغير زراعة وتبويرها ، ففي الحديث : « **من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه** » وفي الحديث أيضًا : « **من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو بها أحق** » (رواه البخاري) ، وشجع الإسلام على استصلاح الأرض وكذلك جاء في الحديث : « **من أحيا أرضًا مواتًا فهي له** » .

وأكثر من هذا بلغت عناية الإسلام بالزراعة والغرس وتعمير الأرض ، أن ينبهنا إلى ذلك حتى ولو بدت علامات القيامة ، ففي الحديث : « **إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فَسيلة ، فاستطاع ألا تَقوم حتى يغرسها فليغرسها** » ، والأحاديث في شأن رعاية النبات الأخضر والإبقاء على الأشجار والعناية بالنخيل عديدة ويضيق المقام عن سردها وتقصيها .

جـ – في مجال المحافظة على مكونات البيئة وعناصرها : فقد عني الإسلام بذلك عناية بالغة ، فلقد أمر بالرحمة والإشفاق على الحيوانات باعتبارها أحد العناصر الحية في البيئة ، ففي الحديث : بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر، فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفمه ، حتى رقى فسقي الكلب فشكر اللَّه له ، قالوا : يا رسول اللَّه ، وإن لنا في البهائم لأجرًا قال : « **في كل كبد رطبة أجر** » وسمي الحيوان كبدًا رطبة ، إشارة إلى جسده كله ، فهو رطب ما دام حيًّا ، فإذا مات جف .

وهكذا كلما أمعنت النظر في نصوص الشريعة الإسلامية رأينا كيف ينهي الإسلام الإنسان عن العبث بالبيئة المحيطة به أو إفسادها ، وكيف يحثه على المحافظة على مكوناتها ، بل ينهى عن الإفساد في البيئة ، حتى في أشد الحالات وأحلك اللحظات خلال المعارك والجهاد ضد الأعداء ، فيقول الرسول ﷺ آمرًا جنده والمجاهدين معه : « **لا تقتلوا امرأةً ولا وليدًا ولا شيخًا ولا تحرقوا نخيلاً ولا زرعًا** » . (رواه أحمد) ، وفي وصية أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد حين وجَّهه إلى الشام يقول :

« لا تخونوا ولا تغدروا ولا تقتلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأةً ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا لأنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم من أجله . (٢/٢٢٣ ، ٢٢٤) .

إنها لوصية فذَّة تحمل كل معاني القيم التي أراد أبو بكر الصديق من أسامة بن زيد وصحبه الالتزام بها وأنها في فقرة منه : « لا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا للأكل » – تنم عن وعي بيئي عميق ، وهي في ذلك بمثابة درس في التربية البيئية جاء في زمن لم تكن البيئة تشكو من تدخل الإنسان الجائر في أنظمتها ، إنه درس يجب أن يبقى في ذهن وفكر كل من يخطط لبرامج التربية البيئية على أي مستوى .

كما أن دائرة الرحمة شملت أيضًا المحافظة على ما خلق اللَّه من جمال في المخلوقات كالحيوانات ، فلقد نهى الرسول ﷺ عن وشم الحيوان أو قطع بعض أجزائه ، فإذا به يرى حمارًا ذات يوم وقد وُشِمَ وجهه ، فقال : « **لعن اللَّه من وشمه** » (رواه مسلم) .

إن الإسلام حين ينهى عن العبث بجماليات الحياة ووفق البيئة ، فإنه يفرض بذلك قاعدة

جلية تُستمد منها التشريعات والقوانين ، ألا وهي الدعوة للعناية بالمخلوقات وكافة الموجودات التي خلقها اللَّه في البيئة ، خاصة إذا كانت لا تؤدي إلى إيذاء الإنسان وإيقاع الضرر به ، ثم تعويد الإنسان لأن يكون عنصر خير ، وعاملًا أصلح في بيئته المحيطة به ، وتعميقًا لهذه القاعدة الجليلة يلفت الرسول نظرنا بقوله : « **عُذِّبت امرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض** » . (رواه مسلم) .

وهكذا نهى الإسلام عن الإفساد في البيئة ويحض على المحافظة على عناصرها ومكوناتها ، وبالنظر إلى البيئة على أنها نعمة اللَّه للإنسان ، وعليه أن يحصل على رزقه ويمارس علاقاته دون إتلاف أو إفساد مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [البقرة : ٦٠] .

وما التلوث الذي نراه ونلمسه ونعيشه في مكونات البيئة ماءً كانت أم هواءً أم تربةً إلا مظهرًا من مظاهر الإفساد في الأرض الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥] .

خاتمة

وهكذا حاولنا في الصفحات السابقة أن نلقي الأضواء على كيفية معالجة الإسلام وتنظيمه لعلاقة الإنسان بالبيئة على اعتبار أنها الوسط أو الإطار الذي يعيش فيه الفرد (الإنسان) ليستمد منه مقومات حياته ويمارس فيه علاقاته ، ورأينا كيف أن الإنسان من المنظور الإسلامي إنما خلق لمهمة وغاية أما المهمة فهي خلافة اللَّه في أرضه ، والخليفة مؤتمن على ما استخلف فيه ، والغاية هي تحقق العبودية لله تعالى ، بما يعنيه ذلك من الالتزام بالمنهج الذي وضعه الخالق للإنسان في هذه الحياة .

وفي ضوء هذه المهمة والغاية .. تأتي علاقة الإنسان بالبيئة والنظم البيئية التي تمثل مكونات هذا الكون بما فيها من عناصر حية أو غير حية ، وتبين لنا أن الإنسان يأتي على رأس قائمة هذه المكونات ؛ فهو الكائن المسيطر والمتحكم والمؤثر في بقية المكونات ، ومن هنا كانت خطورة وضع الإنسان في البيئة إلى الدرجة التي أصبح علماء البيئة والمهتمين بقضاياها يطلقون على الإنسان أنه (مشكلة البيئة) ، ومن هنا أيضا تأتي أهمية التعرف على منهج الإسلام في رعاية البيئة وضبط تصرفات الإنسان وفقًا

لمقتضيات المنهج الإلهي الذي يشكل قوامه القرآن الكريم والسنة المشرفة .

وإذا كان العلماء والمفكرون والعاملون في شؤون البيئة يختلفون فيما بينهم فيما يتعلق بالإجراءات التي ينبغي اتخاذها لحماية البيئة ورعايتها والمحافظة عليها ، فهناك من يرى حماية البيئة عن طريق تكنولوجيات جديدة .

وآخرون يركزون على التنظيمات التشريعية والقوانين الصارمة ، وهناك من يؤكد على تعديل أنظمة الإدارة البيئية وزيادة الاعتمادات المالية اللازمة لإحداث الإصلاحات المناسبة في البيئة ، وبناء أنماط بديلة من التنمية تعتبر حماية البيئة ورعايتها بُعدًا أساسيًّا من أبعادها ، إلا أن الجميع يتفقون على أن الاهتمام ببرامج التربية البيئية يعد حجر الزاوية في هذا المجال . ومن هنا تأتي أهمية دراسة المنهج الإسلامي في رعاية البيئة على اعتبار أن ذلك يشكل جانبًا أساسيًّا في برامج التربية البيئية ينبغي التركيز عليه جنبًا إلى جنب مع المحتويات الأخرى لهذه البرامج .

* * *

obeikandl.com